رمزية مرآة الذات المنكسرة في المجموعة القصصية (المرآة تزيد من الوحدة) للقاص الجزائري (محمد رابحي) دراسة في ضوء الأطروحة التحلينفسية البنيوية لـ «جاك لاكان»

د. ميداني بن عمر

مخبر التكامل بين علوم اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة الشهيد حمه لخضر – الوادي، Benamor-midani@univ-eloued.dz

تاريخ الإيداع: 2025/05/21 **تاريخ المراجعة:** 2025/05/21 **تاريخ القبول:** 2025/12/16

ملخص

تحاول هذه الدراسة أن تميط اللثام عن أهمية حضور الآخر، ودوره في إعطاء وعيٍ قارٍّ نستكين إليه عن هويتها، وهو وعي يتراكم عبر سيرورة من الارتدادات الانطباعية التي تَرشَحُ إلى ذواتنا من الآخرين منذ «مرحلة المرآة» في طفولتنا الأولى كما تمثَّلها «جاك لاكان»، وانعكاسات الرمز اللغوي في اغترابنا الوجودي الكبير عبر تفاضلات وأحكام الغير عنا داخل أنظمة اللغة في الفضاء الاجتماعي، وهي تمثيلاتٌ لهويتنا ستظل منذورة للنقص، وهشاشة عدم الامتلاء، والتشكيل المتجدد. وستجد هذه الدراسة في المجموعة القصصية للقاص الجزائري محمد رابحي المعنونة بـ « المرآة تزيد من الوحدة » نموذجا للاقتراب من هذه المفاهيم الملتبسة عبر قراءة نفسية بنيوية تتتبَّعُ أطياف الهوية المرتدّة من مرايا الآخر في الخطاب.

الكلمات المفاتيح: هوية، الأنا، آخر، مرحلة المرآة، تحليل نفسي.

The Symbolism of the Shattered Self-Mirror in Mohamed Rabhi's Short Story Collection The Mirror Deepens the Solitude: A Study in Light of Jacques Lacan's Structural Psychoanalysis

Abstract

This study investigates the crucial presence of the Other in shaping a stable sense of identity—an awareness formed through cumulative impressions from others, starting with the "mirror stage" as conceptualized by Jacques Lacan. with the "mirror stage" as conceptualized by Jacques Lacan. It considers how language reinforces existential alienation, as identity is continually redefined through symbolic differentiations and social judgments. A psycho-structural reading of Algerian writer Mohamed Rabhi's short story collection The Mirror Deepens the Solitude serves to trace how identity is reflected and refracted in the mirrors held up by others.

Keywords: Identity, Ego, other, mirror stage, psychoanalysis.

المؤلف المرسل: ميداني بن عمر، benamor-midani@univ-eloued.dz

توطئة:

يرتبط مفهوم الغيرية ارتباطا وثيقا بمرحلة (المرآة) (STADE DU MIROIR)، كما اقترحها (جاك لاكان 1901–1981م) (Jacques Lacan) على أنطولوجيات التحليل النفسي ما بعد الفرويدي، قالباً كلَّ مقولاتهم عن الأنا وارتباطها بالآخر رأسا على عقب. فبعد أن ظل الاعتقاد الراسخ أن الآخر يتشكل من إدراك الأنا/ (الذات المدركة) للأغيار، أو لما يختلف عنها خارج طبيعتها. سيترسخ في حقول هذه الدراسات أنّ الأنا لا يمكن لها، في الواقع، أن تفتكَّ حدودا ومعالمَ مستقلة إلا من هذا (الآخر) الذي انسلَّتْ من أمشاجه.

فالطفل في أشهره الستة الأولى ليس أكثر من مجرد كتلة رغبويّة (هُووية) نسبة إلى (الهو) الفرويدي، لا يشعر بانفصال جسده عن جسد أمه الراعية المرضعة المكتنفة لكينونته. وهي المرحلة التي يُطلق عليها اسم المحطة (الواقعية) التي تتحقق فيها رغبات الطفل دون أن يَطلب، أو أن تُرجَأ حاجاته، أو تخضع للكفّ والمنع. وهو ما يجعله يشعر بأن جسده الذي هو وعاء رغباته ولذائذه ليس إلا امتدادا لجسد أمه، أولا. بل وامتدادا طبيعيا حيويا وواقعيا للموضوعات الخارجية من حوله.

مصداقُ ذلك، أنّ الطفل قد يصرخ عندما تلطمه يداه، أو حين يخدش وجهَه بأظافره. كما أنه قد يبكي حين يُضرب طفلٌ آخر أمامه، وكأن جسده هو الذي تعرّض للضّرب. ذلك أنه لا يعرف حدود جسده من حدود العالم الخارجي الذي يحيط به. وسنفترض دائما أن هذه المرحلة المبكرة من وعي الطفل هي مرحلة ما قبل وعيه بهويته، في ظل غياب الأغيار واستشعاره بأن فضاءه الحميمي الذي يحيا في حماه مهدَّداً. ليدشِّن الطفل بعدئذ أكثر من اغتراب يفصله عن هذه الحقيقة الأولى، حين يكتشف جسده في المرآة، وهو يعيد تحيين تصوراته عن ذاته باللغة عبر انطباعات الآخرين عنه فيما بعد.

إشكالية الدراسة:

تروم هذه الدراسة أن تحفر عميقا في معضلة الهوية في الخطاب، والتي نحسب أنها معطى داخلي نصنعه لأنفسنا بآلية منبثقة من ذواتنا، غير أن أطروحات التحليل النفسي البنيوي تذهب بنا إلى وجهة مغايرة، وهي أنّ هوياتنا لا يمكن تمثُّلها إلا في كنف الآخر، فهل جسدت المجموعة القصصية للقاص (محمد رابحي) (المرآة تزيد من الوحدة) هذا التجلي المرآوي للذات بحضور الآخر في فضاء العيش المشترك، وفي الخطاب؟

أهمية الدراسة:

لعل أهمية هذه الدراسة تكمن في جمعها بين خطابين إنسانيين مختلفين، الخطاب الأدبي، والتحليل النفسي البنيوي (ما بعد الفرويدي) ممثلا في مقاربات (جاك لاكان) التي يعتبرها الدارسون صعبة المراس، وموغلة في جموحها المعرفي المتنازع حول نجاعته الإجرائية. غير أننا آنسنا في تمثلات القاص (محمد رابحي) لهوية شخصياته في هذا العمل اقترابا مريبا لأطروحات (جاك لاكان) وخُطاطاته النفسية، فحاولنا أن نُجَسِّر معبرا بين الخطابين.

1– مرحلة المرآة /من الرغبة إلى الاغتراب:

ستكون لحظة مواجهة الطفل لجسده في المرآة واكتشافه له، أخطر لحظة وجودية مريعة وانقلابية في وعي الطفل بوجوده. وتكمن خطورتها بشعوره القاسي والممضّ بـ (الاغتراب)، وهو ماسينجرُّ عنه (سوء التَّعرُّف méconnaissance) لكينونته كما يسميه (جاك لاكان) لأنه اختبر إحساساً مختلفاً لأبعاد جسده، وعليه أن يُعيد بناء تمثلاته لذاته من خلال هذه المعرفة الجديدة المعدَّلة بفعل (المرآة). لأن ما يراه الطفل منعكسا لعينيه هو (جشتالت) (شكل أم هيئة) وهو الذي " يظهر على السطح المفضّض ويمنح «الأنا» هويتها. هذا هو السبب في أن الجشتالت

هو مكوِّنٌ (بكسر الواو)، أكثر مما هو مكوَّنٌ (بفتح الواو). فالجشتالت يقدِّم وهماً في عكس [صورة] الطفل في البداية. إنه يبدو كبيرا ويقف جامدا بلا حراك، مثل تمثال. وفي الحقيقة إنّ هذا الانعكاس يشبه الإنسان الآلي لذلك ليس مفاجئا أن (لاكان) يعتبر هذه الصورة بمثابة المنحى المغرِّب للأنا. عندما يكتشف الولد أناه في المرآة، فإن هذه الأنا يصدف أنه ليس أكثر من إسقاط على النموذج، يكون الانعكاسُ بعيدا عن الواقع، إنه يشبه الهلوسة، لكن لكي يعمل الولد في العالم، يتطلب «أنا» مُسقَطاً يؤمِّنُ له صورة متماسكة على الأقل، ومثل هذه الصورة تسمح بتجميع الأنا من أجزاء متشظية لتُكتسب بعض الاستقرار، بغض النظر عن مدى كونه تخيليا في تطوره."[1].

لا بد من مرور الطفل إذن من المرحلة التي يسميها لاكان الواقعية إلى المرحلة التخيلية أو الخيالية وهو مرور تطوري لا بد منه بقدر ما فيه من تمزّق وانفكاك لوعيه بذاته واهتزاز شعوره بكينونته وكأنه يمحو تجربة سابقة وينسخها كي يدشن مرحلة أخرى يشعر بأنها استئناف للترميم المتجدد للأنا حتى تنسجم مع الجشتالت الهُوَوي المختلف الذي تراءى لها.

" فمرحلة المرآة (من 6 إلى 18 شهرا) هي مرحلة تأسيس كينونة الطفل التي يبلغها قبل نضجه العصبي الذي يُقدِّم له معطياتٍ مُجزَّأةً ومشروخة يتعذَّر عليه من خلاله الفصل بين ذاته والعالم الخارجي إلى أن تبدو له صورته في المرآة فيتصورها آخرَ منعكساً، ومن هنا ينشأ سوء التعرُّف الذي يُحدث اغتراباً عميقا داخل الذوات، إنها مرحلة الاختبار النرجسي البدئي"[2] ففي هذه اللحظة تَلتقط الذات معطىً محدَّداً لكينونتها، من بين احتمالات أخرى متخيَّلة لها، وتساهم الأم والأسرة في بنائها وبخاصة عندما تحيط العائلة بالطفل لحظة اهتمامه بصورته أمام (المرآة)، وتُرافقه أثناء هذا الاحتفاء والانتباه الحاسم، ولا شك أن نمط هذه المرافقة وكيفيتها سيكون له بالغ الأثر على نفسه... ذلك أن التصور الأولي للجسد المنعكِس ليس تصوُّرا نهائياً منجَزاً، مكتملاً، ممتلئاً وفريدا... بل هو تصور خاضع للإرجاء والتعليق، وقابل للتعديل والتعبئة، والطي والتجاوز.

لا بد من هذه التوطئة، حتى نقترب أكثر –ولو بحذر– من مضمرات (الذات وعلاقتها بالآخر) في المجموعة القصصية (المرآة تزيد من الوحدة) للقاص الجزائري (محمد رابحي) الصادرة عن (منشورات الوطن اليوم) بالجزائر (2019). وهي مجموعة قصص تتخذ من إشكالية الهوية في ارتباطها بالغيرية، و مدى أثر انطباعات الآخرين على ذواتنا في بنائها وإعادة بنائها البؤرةَ الثيمية المركزية لاشتغالها السردي. ومن دلائلنا على هذا الطرح أنه افتتح مجموعته هذه بعتبة سيميائية دالة تتمثل في عبارة للكاتب الفرنسي (جان كوكتو): " يحسن بالمرايا أن تتريث قبل أن تعكس الصور"[3] مع أن الماثل أمام المرآة واحد، ولا يمكن للمرآة إلا أن تعكس صورة من يمْثُل أمامها لناظره. وسنقرأ ضمن هذه العبارة الصورة الطيفية المتعددة التي ترتدُّ إلى ذواتنا عن ذواتنا، والتي تلتبس حتما بالعلاقة مع الآخر، وانطباعاته عنا ونحن نَتَمَلىَّ صُورنا في المرايا، ونمتحن آراء الأغيار المتعددة عنا. وكأن (جان كوكتو) يستمهل المرايا أن تقترح عليه تجليا تبتهج له ذاته من بين حزم متعددة ينتظره منها. إذ سنفترض أنه يمكن للكينونة أن تكون لها أكثر من هوية لو قُدِّر لها أن تُحمل على أي حاضنة ثقافية نفسية محتملة. وكأننا نستحضر قصة (الأميرة النائمة)، حين تصرخ الفتاة في مرآتها: يا مرآتي!! يا مرآتي!! من منا أجمل الجميلات؟ لتجيبها أنك أنت أجمل الجميلات وأجمل زهور بساتين وحدائق المملكة في ربيعها المزهر. أي أن الجشتالت الماثل أمامنا، أو الذي تقترحه المرآة علينا هو الذي يصنع حقيقتنا عن ذواتنا، حتى لو انزاحت عن واقع حالنا.

2- المرآة في سقف الوجود (غربة التحديق المضاعفة):

في القصة الأولى من مجموعته التي عنونها بـ (ممرٌّ في أعين زائغة) تنعكس حياته برمّتها في عدسة عينه التي تكسر أكثر من طيف لذاته في علاقاتها الملتبسة المرتدّة من ممرّ الوجود المتخارج مع الذات. فأنا في مواجهة أبي أصبح أنا مختلفة في مواجهة أمي وجدتي، وأخي، وجارتي، وجنائني الحديقة.... غير أنه يشعر وهو يعود إلى بيته الأليف هذه المرة وكأنه عائد إلى بيتٍ يستعيد اكتشافه واكتشاف أثاثه وشخوصه وحيواناته لأول مرة... وكأنه على رأي (هايدجر) قُذف في هذا الفضاء المريب الذي صار (آخرَ) خارج ذاته المنخورة بالوحشة والحيرة. فلطالما ربط (هايدجر) بين الآخر والسقوط " فهذا الآخر قد رمى به في هذا العالم، غير أنه لا يملك سوى التسليم به، وهذا السقوط قد يؤخذ على معنيين أحدهما إيجابي والآخر سلبي: أما كونه إيجابي فلأن بغيره ما كان يمكن لوجودي أن ينكشف لنفسه، ولولاه لظل وجودي لا نهاية له في إمكانات الوجود. أي أن سقوطي هو الذي حدّدني، وبتحديدي تحقق وجودي العيني "[4] الذي أُعطي لي منعكسا من انطباعات الآخرين عني لذاتي. وكأن الآخرين مرايا تقترح عليّ إمكانات لذاتي المنذورة لانطباعاتهم. وتتأكد غربته في بيته الذي قُذف فيه، حين يقول بطل القصة الأولى:"وصلت إلى غرفة في آخر الرواق: هي غرفتي حسبما أشعرني بذلك شعورٌ مقتضب خاطف(....) أ ولنقل ما أوحى به خيالي.. " ص 14. [5]. ونراه يتساءل في كل مرة إن كانت هذه الحياة التي يباشرها في هذا البيت هي حياته، أم حياة شخص آخر يشبهه أو يعرفه أو حلم حياته من خلاله. هل "أنا أنا أم أنا آخر جديد؟ أنا الآن أم ذكرى"[6]. وكأننا أمام ذلك الحلم الذي رآه الحكيم الصيني (شوانغ تزو) حين أخبر تلاميذه بأنه " حلم بأنه استحال إلى فراشة، والمشكلة تكمن في أنه ما يزال يتساءل بعدها من يكون بعد حلمه هذا؟؟؟ فإن كنت قد حلمت بأني فراشة، فهذا يعني أنه قد تحلم فراشة بأنها شوانغ تزو...إذن من أنا؟ شوانغ تزو أم الفراشة؟"[7]. فهو حين استيقظ لم يعد وعيُه بذاته بعد انكشافها له أمام مرآة حلمه يدرك أنه كان فراشةً حلمت بأنه (شوانغ تزو) فصارها، أم أنه هو، هو (شوانغ تزو) الذي حلم فقط بأنه كان فراشة في حلمه. ليستوي الوجودان المتماهيان في وعيه دون جزم حاسم.

تتعالق الأنا بالآخر في مرايا الحلم المتبادلة وهي تمتحن احتمالات وجودها الشبحية المضطربة في هذا (الممر) الحلمي، فنراه يقول على لسان بطله:" أحسستُني غائصاً بالنوم، وأحسستُني بداخل لعبة أو معضلة لا بد أن أفلت منها، كان علي أن أستيقظ من نومتي نصف اللذيذة لأفصل في الأمر. لأفهم ما الذي يحدث؟ ومن أكون؟ أستيقظ لأحدد أينا صاحب المشكلة. أنا أم شبيهي النائم قربي؟ بالغرفة نفسها"[8].

في اللحظة الطفولية الواقعية التي حدّدها (جاك لاكان) كان وعي الفرد مكتملا بكتلته الرغبوية التي تتَّحد مع الموجودات خارجه، لكنه سيكتشف خواءه وفراغه الأبدي، وسيكتشف أنه كائن السقوط اللانهائي في هذا الوجود عند اكتشاف كينونته أمام المرآة –كما أسلفنا– وهي لحظة التوالج الحلمي بين ذات متداخلة وأخرى متخارجة إزاء هويته المرتجَّة في وعاء وعيه الذي يحاول بلا جدوى أن يجد حدًّا بين الذات والموضوعات الخارجية. هذا الوعاء المرآوي المضطرب ما هو إلا (ممرّ) وجودي لا نستطيع أن نفترض مخرجا واحدا من خلاله لكل كائن بحكم ارتباط هذه المرحلة النّمائية الخطيرة بأكثر من وسيط، وطرائق تنشئة، ومؤثرات خارجية تتدخل فيها.

3- الحلم المرآوي:

لعلنا نستطيع أن نجد ارتباطا بين ثيمتين رئيستين تجسدهما هذه القصة هما ثيمة (المرآة)، وثيمة (الحلم) وهما ثيمتان تتقاطبان لتتجاذبا ثيمة (الذات) بينهما. فالقاص (محمد رابحي)، وعلى لسان بطله يخشى أن يستفيق مثيلُه

المتخيَّل قبله، وهو النائم بجواره... إنه يستمهل نفسه أن تبتدر بـكُوَرَها قبل استفاقة الشبيه حتى لا يصيره: "...يجب عليّ أن أستيقظ قبله، تركته غافياً على الهزّار وحينها كان هو وأسرته ما أحمل أن أكونه، لكن يبدو لي إذا ما استيقظ هو قبلي صرتُ أنا وأهلي البؤسَ الذي انتهى إليه هو وأهله...كأن الدنيا لا تحتمل أن يكون فيها كلانا"[9]. ولا تحتمل الهوية إلا أن تكون الذات أو شبيهها في تجربة هذا السقوط الحلمي المثير هذا.

"فعندما تنظر في المرآة. فإن صورتك المنعكسة التي تمثّلك ما هي إلا صورة من حلمٍ ينكشف لذاتك، هل ستكون لحظتها مُفاجَأً مصدوما، أم محبطا؟ أو بالأحرى مذعورا مما تراه؟ وذلك أنك تشعر بداخلك أنك لست أجمل من الصورة التي أردتها لذاتك"[10].

الذات

المرآة/ الشبيه ⟷ الحلم/تجربة السقوط

ما نزال في حياتنا نُفاجأ بملامح وجوهنا حين تباغتنا في مرايا المحلات التجارية وفي زجاج السيارات، وكأن هناك هُوَّة لا تنفكُّ تتسع دائما بيننا وبين حقيقة ملامحنا كلما تقدم بنا العُمر. والسؤال الذي يلحُّ علينا دائما هو«لِمَ تزداد غرابة ملامحنا أمام عيوننا كلما كنا خارج بيوتنا، أو خارج فضاءاتنا الحميمية المألوفة؟» إن تجربة السقوط الحلمي التي يختبرها الكائن في مرحلة المرآة، ستتردد في حياته خارج كل فضاء أَلِفَهُ وتكرَّست ذاته فيه. وسنصف من جديد تجارب أخرى بالسقوط الحلمي كلما اختبر كينونته في فضاء مختلف يشعر فيه بأنّه مهدد بتحديق الآخرين، حتى ولو كان في فضاء مغاير خال من مرتاديه. هذا الشعور بالتوتر والقلق الذي يتبدّى بإنكارنا لملامحنا ما كان له أن يحدث لولا خوفنا من توجّس الآخرين منها، واستهجانها، وسيصاحبها شعور مبطّن، ورغبة مضمرة في أن نكسر هذه المرايا التي تعرينا بهذه الصورة التي نشعر بأننا لم نعتدها على ذواتنا في عيون الأغيار. وهو ما يشبه الشعور الذي بلغه بطل قصة (محمد رابحي) حين هرع يستعجل ذاته بأن تستفيق قبل شبيهها من حلمها. إنها حركة مرتدة لا واعية نحو تحطيم المرآة بعد أن أعشى تحديقُ الآخرين عيونَ الذات التي تحاول أن تتماسك وتتكوّر حول خصائصها في هذه التجربة الوجودية الحرجة: "دعكتُ عيني، أحسست ما يشبه الدُّوار، لم أستطع أن أحدد أيني أو ما حولي، ولوهلة مخطوفة رأيت نفسي قبالتي كأني أشاهدني في الغرفة من عل، أنا هناك في الأسفل أتململ في الفراش. أغمضت عيني من جديد وأنا أنفض رأسي لأصحو.. أخيرا ثبتتْ برؤيتي زوايا وأبعاد الغرفة، وتبيّنتُ ما حولي، واكتشفت أن سقف الغرفة عبارة عن مرآة مهولة كانت تعكسني"[11]. وسيظل خَلاصه في هذه التجربة الحرجة أن يكون قد كسر المرآة عبر الاستفاقة المبكِّرة قبل الشبيه والهروب من السقف المرآوي المهول حين يعود البالغ إلى لحظة التوتر والقلق الوجودي بل الشرخ الوجودي اللانهائي الذي خبره عندما كان طفلا أمام المرآة. وسيظل بطلُنا كاسرُ مرآته مسكوناً بهاجس انفكاكه من غفوة شبيهه، عبر خروجه من مرآة حلمه المريعة:" نهضتُ ومشيت في غير اتزان وأنا أنظر في ساعتي، أتعثّر بالطّنافس، لم أنتبه إن كان شبيهي ما يزال نائما أم قد سبقني؟؟ هل أنا الأصل أم الحلم؟"[12].

وحين يذهب مفسرو الأحلام المعاصرون إلى أن تفسير كسر المرآة في الحلم سيظل " دالاًّ على تبرُّمنا ورفضنا العنيف لمواجهة الحقيقة التي يمكن أن نصيرها"[13]. يرى "جاك لا كان" أنّ هذا التمزق بين الأصل والصورة سيظل منذورا للتمزق والنقص والتشوه بعد مرحلة المرآة، وهو شعور طبيعي بل ونمائي عند أغلب من نصفهم بالأسوياء عدا من ينتكسون إلى هواماتهم النرجسية العاشقة لصورهم، والممتلئة بذواتهم والذين لن يفلحوا في تطوير علاقات

صحية سوية مع الآخرين، ومع الجنس الآخر، أو الجنس المختلف. فبطل قصتنا يبرز تمزقا منشودا يسمح لتجربته أن تنفتح على الآخر وتتقبّل المختلف، على الرغم مما يجده من توتر وتشنج هُووي ينازعه على أَثَرَة ذاته وانكفائها على رغائبها. فهو يحدثنا عن تجلي تلك الفتاة في غرفته الأليفة التي كانت ترقص " الباليه دون أن تأبه لما أبديته [كما يقول عن نفسه] من تأسُّف لمقاطعتي تدريبها، وراحت تردد لي شرحا كأنها تحفظ ملخصه. كيف أنها تحاول أن تُدخل الرقص الشرقي في هذا الفن بتطويع حركاته الإيقاعية للنغم السيمفوني دون أن تقع في ابتذال « الستريبتيز » محاوِلةً أن تُثبت لي بأن هذا الأخير مستوحى من الرقص الشرقي بعد أن تمّ تشويهه طلبا للإثارة الجنسية لا المتعة الحسية الرفيعة التي تعني شيئا آخر"[14].

تتقبل الذات أكثر من صورة رمزية (avtar) متخيلة داخل فضاءها الثقافي الحيوي الذي تتشرنق داخله دون أن يسكنها رهاب التلاشي أو الاستلاب، لأنها محمية بآلية **الضبط التعايشي**؛ أو ما يسميه (بيير بورديو) بـ (الهابيتوس Habitus)، وهو "مجموع الأذواق والاختيارات والاستعدادات المكتسبة من طرف الفرد داخل مسار قَوْلَبتِه الاجتماعية، فالهابيتوس ليس فقط نظام تفضيل، بقدر ما هو نظام دينامي تطبيقي لدى كل فرد داخل الفضاء الاجتماعي يجعله يشعر بذلك التناغم الذي يظهره طبيعياً داخله، فضلا عن أنه نتاج تلك التجارب الاجتماعية التي ينضوي تحت أنساقها"[15] هذا الهابيتوس سيجعل الفرد قابلا للتعايش مع الاختلافات والتباينات داخل الثقافة، لقدرته فيما بعد على الفصل بين الذات والموضوعات بعد مرحلة المرآة، وهي قدرة تجعله محافظا على قوام ذاته وملامحها الأصلانية الجوهرية دون أن يعصمه ذلك من قابلية هذه الذات للتكيف والتعديل، والإزاحة والتغليب داخل التناقضات الاجتماعية التي تصادفه فيما بعد خارج الفضاء العائلي، أو الحماية والكفالة العائلية المبكرة. فبإمكان هذه الذات أن تقبل رقص الباليه شريطة أن يتم تعديله وتكييفه داخل السلالم القيمية لثقافتنا ليتعايش الفن الغربي مع الفن الشرقي دون أن يسكن الذاتَ رهابُ اجتثاثها من جذورها، على ما في هذه المواجهة المحفوفة بالتوجس من تحدٍّ واغتراب والتباسِ تَعرُّف (méconnaissance)، كما يقول (جاك لاكان). وهي تجربة قد لا يتجاسر الطفل النرجسي المرتبط بأمه على خوضها وتنكُّب هواجسها. لشعوره بامتلاء الذات، واستكانته إلى الازدهاء بفيض رضاه عن ارتداد انطباعاتها في ذاته، وفي عيون المحيطين به.

4- الطباق المرآوي والانتكاس المثلي:

لا شك أن طبيعة علاقة الطفل بأمه في مراحله التكوينية المبكرة له بالغ الأثر على هويته وطبيعة ميولاته الجنسية في بلوغه. وكما تحدث (سيغموند فرويد) عن طفولة الفنان الإيطالي (ليوناردو دافنشي) الذي كان مثلياً لأن حب أمه الطافح له في طفولته مع غياب الأب المنفصل عنهما طوّر في ذاته ميولا نرجسية جعله في مرحلة بلوغه مثلياً. فحضور الأب في الطفولة الأولى بإمكانه أن يفتح أمامه بيسر جسرا علائقيا مع الأغيار، فيسهل عليه تقبّل المختلف والمغاير لجنسه ولطبيعته، ولنظم تنشئته. " لأن حنان الأم الفياض عليه سيجعل نظرته تحل محل نظرة أمه له، وسيحب بدوره الأطفال بالطريقة التي تنظر هي إليهم، وستنتكس أهواؤه إلى أن يصبَّ جامَّ حبه واهتمامه على صورته أمام ذاته النرجسية التي تحيلها إلى أسطورة (نارسيس) الإغريقي الذي هام في ملامحه التي انعكست لعينيه في الماء"[16].

إن جاك لاكان لم يربط نظريته عن المرآة مباشرة بالميول المثلي، لكن الدارسين وجدوا مسالك تأويلٍ تفضي إلى ذلك. وأن استبطان مفهوم المثلي وتحليل انجذابه لذاته لحظة التجلي المرآوي الطفولي سيظل يُوَلِّد نوعاً من التَّوق المُلحِّ وغير المكتمل لتماهي الذات مع صورتها نرجسياً يجعل الدارس يعود دوما إلى مرحلة المرآة اللاكانية هذه..

تجسد القصة القصيرة (ممرٌّ في أعين زائغة) لمحمد رابحي رغبة الذات في التمظهر المرآوي، واستشعار أكثر من احتمال لكينونتها المتفاعلة مع أكثر من تمثل ممكن لمصائر مفترضة داخل قناعاتها الوجودية التي نشأت في كنفها. كالذي يجرب أكثر من ثوب يليق به في محل الألبسة، وسيظل يشعر دائما بمسافة أو فجوة تحتاج إلى أن تردم بين ما هو عليه، وما يأمل أن يصير إليه.

5- الوعي الراجع أو ارتداد الاسم إلى المسمى:

يحدثك محمد رابحي في قصة (نعيم صدوق) المعنونة باسم بطلها عن (الاسم): (نعيم صدوق)، الذي قفز إلى ذاكرته كما تثب سمكة من الماء في هدأة وسكون الأشياء، فيندلع في المخيلة أكثر من حدث، وذكرى وأماكن ومواعيد تجمعه مع (نعيم صدوق). بمجرد ذكر (الاسم). هذا الاسم الذي يسبق وجودنا حتى نصير معناه حين نكبر. " نعيم صدوق، اسم عائد من بعيد، من خلف حدودٍ، من تحت لحود؟ أم مولود جديد؟ ألا يكون الاسم الذي يسبق ميلاد صاحبه. الاسم الذي يشغل بال والديه قبل أن يخرج إلى الدنيا!! هذا الاسم المسبق هو الحب المسبق الذي يتخيلان به طفلهما وبه يستقبلانه. "[17].

كان يمكن لمصير أشخاص في الحياة أن يكون مختلفا لو كانت لهم أسماء مختلفة أيضا. ونحن نردد دائما تلك المقولة العربية المتداولة "لكل امرئٍ من اسمه نصيب". أي أن الكائن يصير دلالة اسمه من خلال انطباعات الآخرين عنه وملامحهم وإيحاءات وجوههم وهم يتوجهون إليه منادين باسمه. وسنستحضر هنا مفهوم السيميائي (فيليب هامون) للشخصية حين نعتبر الوجود الإنساني ملحمة سردية طويلة تبتدئ بمولد الكائن، وتنتهي بحياته. وعلى غرار ذلك يقترح أن الشخصية في السرد تكون في بداية البناء الحكائي (علامة مفرغة) من الدلالة، لا يكتمل امتلاؤها الدلالي إلا في نهاية الحكي، " ويُعتبر اسم العَلم من العناصر الأولى للتقابل بين الشخصيات. فالاسم قد يحمل، من خلال أشكال الحروف أو طبيعة المقاطع والأصوات أو تركيب الكلمة أو تاريخها، إيحاءً ببعض خصائص تلك الشخصية أو بمصيرها، مما يجعل أسماء الشخصيات على هذا النمط برامج سردية مكثفة"[18]. وهو هنا ينطلق من أنّ دلالة أصوات مورفيم اسم العلم في حد ذاتها هي اللبنة الأولى التي توضع لبناء الهيكل الدلالي العام للشخصية الذي لا يكتمل إلا في آخر صفحة من العمل السردي.

وكما رأينا سلفا كيف تتحدد كينونة الفرد من خلال جشتالت الصورة المرتسمة في مرآة الطفل عن جسده، وهو جشتالت بقدر ما يكوِّننا فإننا نكوِّنه لأنفسنا أيضا كما رأينا. فإن الاسم (نعيم صدوق)، أو أي اسم لكائن بشري آخر يغدو مكوَّناً ومكوِّنا كذلك وإن تجلى ذلك في المرحلة الرمزية التي ذكرها جاك لاكان، والتي تتلو المرحلتين الواقعية (قبل مرحلة المرآة) والتخيلية (أثناءها). ففي المرحلة الرمزية ترتد إلى الكائن تجليات لذاته عبر اللغة، أو لنقل عبر انطباعات الآخرين عنه من خلال ما يتلفظون به حوله، بدءاً برنين اسمه المرتد إليه محمّلا بانطباعاتهم عنه. " فدخول الإنسان عالم اللغة هو بمثابة دخول عالم الرمز لأن العالم كله الذي يبدأ الإنسان اكتشافه منذ ولادته مبنيٌّ على أسس لغوية متقاطعة بالمجاز والكناية والبلاغة والقواعد اللغوية.... عالم الرمز في تركيبته اللغوية، يؤسس الإنسان، ويفصله عن طبيعته الحيوانية"[19] الواقعية، وكأنه في هذه المرحلة يدخل في اغتراب من نوع آخر مختلف عن اغترابه المرآوي في المرحلة التخييلية، وأول عتبات ولوجه للمرحلة الرمزية يتلمَّسها في معرفته لاسمه الذي يجده قبله. فنحن نصير دائما ما يقوله الآخرون عنا، وهو انكشاف مرآوي رمزي للذات أكثر كثافة وتعقيدا وأعمق انكسارا وتحويرا لمصيرنا في الفضاء العمومي، ولذا سنفهم بوضوح ونحن نقارب هذا الطرح الملتبس مقولة (مارتن هايدجر) إنّ اللغة هي بيت الكائن، أو بيت الوجود. وهو (أي هايدجر نفسه) هو الذي حدّثنا عن غربة الكائن البشري المقذوف

في الوجود، وأخيرا سوف لن يجد غير اللغة كي يعبر بها عن رغباته المكفوفة في المرحلة الواقعية، كما يعيد بناء ذاته رمزيا من خلالها.

6-انزلاق الدوال في هوام المدلولات المنعكسة من الآخر:

حين نتتبع قصة (نعيم صدوق)، وهو يبحث في احتمالات مدلولات هذا الدال، أي من تكون الشخصية المكتملة الدلالة والتي يمكن أن تملأ هذا الوعاء المفرغ الذي هو دال الاسم؟ "تملكتني رغبة أو حاجة إلى أن أعرفه، أعرف حكايته. اسم كآلاف الأسماء التي قد تصادفها في زخم حياتك اليومية: في الجرائد والإعلانات، في التلفزيون، في نداءات...صياحات...ثرثرات أو حورات عراك..نعيم صدوق اسم غائب بين الأسماء. ثم ينطّ إليك دون بقية الأسماء. لماذا هو بالتحديد؟"[20]. وحين لا يجد دلالة لهذا الدال المرتحل المنزلق لاهثا عن مدلول ما يلتصق به، يصاب السارد بحالة من الذهان الحاد، حين يقول بينه وبين نفسه:"هل يكون نعيم أنا؟ ذاتي الغائبة الضائعة: ولكني لم أحس يوما برغبة في أن أكون شخصاً آخر، أو أكون مكانَ آخر.... أهي حالة تَخاطرٍ"[21]. ولسوف تنتهي قصة (نعوم صدوق) والبطل في زحام الشارع يتأمل وجوه المارة عله يجد ملامحَ لنعوم صدوق يحسب أنه رآها في منامه، إلى أن يلطم تلميذا صغيرا بمئزره المدرسي فيعثر أمامه، ويخرج البطل من سيارته كي يساعده على الوقوف، ويعدّل هندامه وهو يُدلِّله باسم: نعوم... ويتساءل كيف انزلق هذا الاسم من لسانه وأطلقه على هذا الطفل، مع أنه لم يفكر يوما أن (نعيم صدوق) يمكن أن يكون طفلا؟.

لقد ارتدَّ الاسم للذات بعد ارتحاله دالاً مفرغا في الكائنات والوقائع وفي إمكانات الوجود الإنساني المتعددة، لقد عاد إلى ما قبل مرحلة المرآة، وفي أثنائها. إلى مرحلة اللذائذ النرجسية قبل التعرف على الجنس المختلف واختبار العدوانية الأوديبية عبر وجود الأب، من ها هنا ستعبُر الذات الجسر المختصَر الذي سيمكنها من أن تألف الأغيار، وتتقبَّل الآخر وقد يكون للغة دور بارز في تأثيث هذا العبور الرمزي المحفوف بالريبة والاضطراب. فبما أن اللغة هي خطاب الآخر في الذات، فهي بالتالي رغبات الآخر داخلنا. فاللغة كما يقول جاك لاكان " هي شرط اللاشعور. فاللاشعور هو الحصيلة المنطقية للغة إذ لا يوجد فعليا لا شعور من دون لغة. لذا يلعب اسم الأب [مثلا] دورا أساسيا في انشطار الأنا وتكوّن اللاشعور. وينشأ اللاشعور لدى الطفل مرتبطا باللغة التي يتلقاها منذ نشأته عن الأم –والتي لا تدري هي نفسها عن مرجعية تلك اللغة شيئا. هذه اللغة ترتبط أصلا بالأب سواء أكان حاضرا أم غائبا"[22] من خلال الإحالة إلى اسمه وتبئير الخطاب نحوه من قبل الأم والذي يتلقاه طفلها في طفولته الأولى.

يعيش الطفل–في البداية– اغترابين باللغة، اغتراب باسمه، وبدال الوسم الذي تضعه العائلة لشخصه، واغتراب باسم سلطة الأب الغريب الذي ينازعه عن أمه في المرحلة النرجسية. فالوسم الرمزي باللغة يشعر الكائن أنّ الآخر يمارس رغبته داخله، واستعماله للغة (الآخر) يشعره دائما أن هناك هوّة أو فجوة تتسع بينه وبين رغباته الأصيلة التي تَمزَّقَ واغتربَ عنها في المرحلة الواقعية. وما تجسِّده رحلةُ السارد مع اسم (نعيم صدوق)، واغترابه بهذا الاسم وترحاله عبر أكثر من احتمال وجودي إلى أن يدخل (نعيم صدوق) سريرَه الحميمي مع امرأته ويتخيل أنه يضاجعه بدلا عنها في لحظة هَوَسيّة مثلية أزعجته وحاول أن يبعدها عن هواجسه، على الرغم من أن (نعيم صدوق) ما يزال إلى نهاية القصة مورفيما اسميا لشخصية مفرغة من أي دلالة قارّة: "أنزلق تحت الغطاء، أضم امرأتي التي أبدت رغبتها وهي تتمطط وتتثاءب وتضمني إليها أكثر. لسبب غير واضح أتخيلها نعيم صدوق. أقوم بتذكير كل شيء فيها، فإذا هي فتى جميل، وبسرعة أطرد الفكرة حتى لا أجد نفسي في جماعٍ مثليٍّ قد يقلّص الرغبة لدي."[23].

لقد اشتطَّ الاغتراب بذاته وجعله يدلف إلى منطقة اللاشعور عبر هذا الدال اللغوي المنزلق بوعيه...من خلال (نعيم صدوق) هذا الاسم الذي شاء له البطل أن يرتدي أكثر من مسمى ومدلول لكنه ينضو عنه كل حمولة دلالية يراها لا تليق بهذا الاسم ليستأنف بحثه من جديد عبر ارتحال دلائلي آخر مضن ومستمر إلى أن ارتدَّ الاسم الذي انطلق من شفتيه إليه؛ إلى طفولته البعيدة. وقد استحالت امرأتُه أمَّه في المرحلة الواقعية، ليجد الرغبة القصوى في عناق ذاته وهو في مرحلة النرجس والامتلاء الرغبوي الطافر الطافح في حجر مرضعته.

خاتمـة:

تعد المجموعة القصصية (المرآة تزيد من الوحدة) للقاص الجزائري (محمد رابحي) من أندر التجارب السردية التي اشتغلت بعمق وبحفر نفسي واعٍ على الثيمة المرآوية للذات ولكينونتها في الوجود رمزيا وتخيليا وواقعيا حتى لكأنها تكاد تحاذي المنظور الذي اقترب من تمثّلاته البنيوي السيكولوجي الكبير (جاك لاكان)، حين ينزلق دالُّ الكينونة مغتربا باحثا عن مدلوله في افتراضات الوجود، ولا تعود الذات بعدئذ إلا إلى مرآة طفولتها الأولى، ومنطلق وعيها المبكر بالشخوص والأشياء من حولها.

يغامر محمد رابحي في هذه المجموعة القصصية صوب مضامين موغلة في الالتباس والغموض، ونشعر أنه اختار الدروب الأكثر وعورة واستعصاءً على فهم قارئه... لكنه يدهشك بأنك ارتميت في أتون أسئلة وجودية كانت تُـلـحُّ عليك وكنت تهرب من الاستغراق في دوامتها الجارفة بأسلوب سلسٍ مشوق، وتصعيد درامي بارع يشدُّ القارئ إلى نهايات قصصه المثيرة المتعتعة والمزلزلة لتماسُك وعيِك. وعيُك الذي ستكتشف عبر قراءة هذا (النص/ الهاوية) أنه مجرد تكأة رمزية واهية للتكوثر حول حقيقة ذاتك، وهي حقيقة ستظل مخترَقة بهواجس طفولية بدئية لا يعدو أن يكون منطلقها –حسب جاك لاكان– ذلك العبور غير السوي للوعي الطفولي من المرحلة التخيُّلية، أو الخيالية المرآوية، إلى المرحلة الرمزية فيما بعد. هذا ما تحاول أن تُضمره، أو تسكت عنه نصوص هذه المجموعة وهي تُخرج أبطالَها من الأسقف الزجاجية العاكسة لذواتهم في غرف طفولتهم إلى زحمة الحياة وصخبها ودروبها المأهولة بالاغتراب والتشتت والتشعشع الوجودي العاصف.

توصية:

نأمل أن تحفز هذه الدراسة الباحثين للانتباه إلى خصوصية الأدب الجزائري المعاصر الذي يكتبه شبابٌ تنضح أعمالهم الإبداعية بعمق التجربة الواعية المترعة بمحمولات معرفية وإنسانية ووجدانية ثرية تغري بإسقاط قرائي متعدد. فأدبنا الجزائري سيظل يشكو تقاعس النقد عن مواكبة حراكه التجريبي الحثيث وقد حَبَسَ جهدَه في استقبال الوافد الإجرائي الغربي، أو في معضلات توطين المفاهيم والاصطلاحات داخل مخابر (الميتا نقد)، ليستشعر الإبداع الأدبي وبخاصة الشعر والقصة القصيرة منه غربته في دنيا النقد، وفي تطارح إفضاءاته داخل مدارج الجامعات، وفي رفوف مكاتب المؤسسات الأكاديمية العليا.

الإحالات والهوامش:

1- جوزيف بريستو، الجنسانية، تر: عدنان حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سورية، ط1، 2007، ص 149–150.

2- Eric Mansfield, La Symbolique du regard - regardants et regardés dans la poésie antillaise, Édition Publibook, France, 2009, p.25.

3- محمد رابحي، المرآة تزيد من الوحدة، منشورات الوطن اليوم، الجزائر، ط1، 2019، ص 8.

4- منال خصاونة، جدلية الأنا والآخر، دراسة تحليلية في ديوان حمائم تكنس العتمة، دار الكتاب الثقافي للنشر، الأردن، ط1، 2024، ص 20.

5- المصدر ص 14.

6- المصدر ص 27.

7- أوشو، لقاءات مع أناس استثنائيين، تر: علي الحداد، دار الخيال للطباعة والنشر، الكويت، ط1، 2023، ص 68.

8- المصدر ص 18–19.

9- المصدر ص 19.

10- Voir ROBERT Purnam et Jocelyne Aubry, Vos rêves éxpliqués de A à Z, Comment la puissance de vos rêves peut transformer votre vie et votre destin, BOD, France, 2023, p.348.

11- المصدر ص 19.

12- المصدر ص 20.

13- ROBERT Purnam et Jocelyne Aubry, Vos rêves éxpliqués de A à Z, Éditions Godefroy, Paris, 1993, p.348.

14- المصدر ص 13.

15- Marc Montoussé, Gilles Renouard, 100 fiches pour comprendre la sociologie, Editions Bréal, France, 3ème édition, 2006, p67.

16- Voir Jean Florence, L'identification dans la théorie freudienne, Publications Des Facultés Universitaires Saint – Louis Bruxelles, 2ème édition, 1984, p.67.

17- المصدر ص 32.

18- محمد القاضي وآخرون، معجم السرديات، مؤسسة الانتشار العربي، لبنان، ط1، 2010، ص 69.

19- إيفانز ديلان، قاموس جاك لا كان التمهيدي في التحليل النفسي، تر: محمد أحمد محمود خطاب، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط1، 2018، ص 46.

20- المصدر ص 32.

21- المصدر ص 37.

22- نيفين زيورة، فرويد ولاكان، رحلة التحليل النفسي من المهد إلى البعث، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط1، 2023، ص 111.

23- المصدر ص 41.

- **قائمة المصادر والمراجع:**

- جوزيف بريستو، 2007، الجنسانية، تر: عدنان حسن، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، اللاذقية، سورية.
- Eric Mansfield, 2009, La Symbolique du regard - regardants et regardés dans la poésie antillaise, Édition Publibook, France.
- محمد رابحي، 2019، المرآة تزيد من الوحدة، منشورات الوطن اليوم، ط1، الجزائر.
- منال خصاونة، 2024، جدلية الأنا والآخر، دراسة تحليلية في ديوان حمائم تكنس العتمة، دار الكتاب الثقافي للنشر، ط1، الأردن.
- أوشو، 2023، لقاءات مع أناس استثنائيين، تر: علي الحداد، دار الخيال للطباعة والنشر، ط1، الكويت.
- Voir ROBERT Purnam et Jocelyne Aubry, 2023, Vos rêves éxpliqués de A à Z, Comment la puissance de vos rêves peut transformer votre vie et votre destin, BOD, France.
- ROBERT Purnam et Jocelyne Aubry, 1993, Vos rêves éxpliqués de A à Z, Éditions Godefroy, Paris.
- Marc Montoussé, Gilles Renouard, 2006, 100 fiches pour comprendre la sociologie, Editions Bréal, 3ème édition, France, ,.
- Voir Jean Florence,1984, L'identification dans la théorie freudienne, Publications Des Facultés Universitaires Saint – Louis, 2ème édition, Bruxelles.
- محمد القاضي وآخرون، 2010، معجم السرديات، مؤسسة الانتشار العربي، ط1، لبنان.
- إيفانز ديلان، 2018، قاموس جاك لا كان التمهيدي في التحليل النفسي، تر: محمد أحمد محمود خطاب، مكتبة الأنجلو مصرية، ط1، القاهرة.
- نيفين زيورة، 2023، فرويد ولاكان، رحلة التحليل النفسي من المهد إلى البعث، مكتبة الأنجلو مصرية، ط1، القاهرة.